حداد النوارس البيضاء

مثل العصفورة أنت ، تبدين جميلة .. الجو ربيعي رائع .. تنزلين ضحى هذا اليوم منحدرا نحو النهر ، وبوبي كلبك الصغير الأسود يسبقك قليلا .. أحيانا تجرين وراءه .. لكنه أسرع منك ، هو لايتعب وأنت صغيرة ، في جهتي رأسك وردتان حمراوان وفستانك الجميل الأبيض يجعل منك فراشة ربيعية حين تقفزين وسط الخضرة قالت لك أمك قبل قليل : العبي قرب الدار .. احذري ..لاتذهبي إلى النهر يا عزيزتي .

الشمس تصعد دافئة .. وعصافير تتبادل الأنغام .. والنهر صار قريبا منك .. صوت موسيقى مياهه ، يصل أذنيك واضحا عذبا

– بوبي لاتسرع .. احذر أن تذهب وراء النهر .

عزيزتي لاتذهبي إلى النهر ، النهر مخيف يانورة فيه الذئاب وفيه الغول ... هكذا قالت لي أمي مثل عشرات المرات السابقة لكن اليوم معي بوبي فلماذا أخاف ! أعرف الذئب يخاف من بوبي ، أما الغول فلا أعرف .. أظنه أشجع من الذئب واليوم جميل .. الشمس رائعة .. هل يمكن أن يأتي الغول حين تكون الشمس رائعة .. ؟ !

أعرف .. أمي تخشى أن أجتاز النهر ، قالت لي صباحا .. قالت لي عشرات المرات .. وراء النهر الذئب والغول ... عزيزتي نورة احذري ..

لكني احس أن وراء النهر لايوجد ذئب ولا غول .. أبدا أعرف أن هناك مخلوقات أخرى ...

الشمس جميلة .. الجوربيع أخضر .. تصلين الى النهر .. بوبي يلعب في الماء ، الدنيا رائعة ، فلماذا الخوف .. هل يوجد خوف والدنيا رائعة .. تجلسين على صخرة سوداء .. تنزعين حذاءك .. تضعين رجليك في الماء البارد ، ما أجمل صوت الماء حين يكون الجو ربيعيا .. تنظرين الى الجهة الأخرى ماوراء النهر الدنيا هنالك أيضا رائعة فلماذا الخوف ولكن .. وتعود بك الذكرى شهورا مثل الاعوام مضت ، أحسست كأنك في ذاك الزمن كنت صغيرة .. أنت مازلت صغيرة سبع سنوات في هذا الربيع لكنك انذاك كنت اصغر ، كان ذلك منذ شهور والشهور طويلة ، جد طويلة مثل السنوات كان الجو خريفا وكان رائعا مثل اليوم تماما .

كنت صغيرة وسمعت الناس يقولون كلاما جديدا ما سمعته قبلا :

- القنابل
- الرصاص
- السجن
- القتل
- الحرب .. الهجرة ...

منذ ذلك اليوم أيضا ذهب أبوك ولا تدرين إلى أين .. أمك أيضا لاتعلم هي تقول لك دائما سيرجع يوما ، سيأتيك بالازهار وبالحلوى وبكراس للرسم جميل .

- آه يا أمي لوفعلا يجيء أبي .

بوبي يلعب في الماء .. يقفز قفزة الى الضفة الاخرى من النهر .. هناك وراء النهر يا نورة حقول خضراء واشجار ... وهنالك أزهار تحيط

بمنزلكم .. منزلكم جميل .. جميل جدا .. غرفتان صغيرتان وحديقة زيتون وتفاح حوله وورود أيضا.

امك نورة لا تقول لك الحقيقة ، ربما هي لا تعرف .. هنالك وراء النهر لايوجد ذئب أو غول ، هنالك أناس آخرون يا نورة يضعون على رؤوسهم قبعات بشعة ويحملون في أيديهم أشياء للقتل ، هؤلاء أخرجوكم يوما من منزلكم ورموكم خارجه أتذكرين يا نورة ؟ كنت صغيرة ومازلت صغيرة لكنه يوم شيب حتى الرضع ، الطائرات كانت تشوه روعة السماء .. وصفير الرصاص كان يحجب أصوات العصافير وتشبث كل الناس بحيطان منازلهم ، لكن جاء أناس وانتزعوهم منها .

في ذاك اليوم غاب أبوك ، أنت لاتذكرين كيف غاب أبوك ومنذ ذلك اليوم صرت تخرجين من الخيمة كل ضحى أنت وأمك حين تكون صورة منزلكم هناك وراء النهر واضحة وجميلة تحت الشمس المنعكسة وتصعدان الى الربوة .. تقفان ساعة من الزمن تتأملان البيت الصغير ، بوبي أيضا يقف صامتا ينظر الى هناك .

- يا أمي أبي تركناه هناك ، لماذا لا نذهب عند أبي يا أمي : !
- لا ياعزيزي يا نورة ، هنالك غول وذئاب لايمكن أن نذهب
- وهل أبي لايخشى الغول والذئاب ؟
- نعم يا عزيزتي سيقتل أبوك الغول والذئاب وبعد ذلك سيعود الينا .

تنظرين وراء النهر ، بوبي هناك يقفز من مكان الى آخر هو لايعرف أن هنالك غولا وذئابا .

- بوبي ... !

لكنه لايسمع ، يجري بين الحشائش الرائعة ، ، تتابعين فراشة تنتقل فوق النهر في اتجاه بوبي ، ما أجملها هذه الفراشة ، لكنها لماذا لاتخاف الغول والذئاب .....

تلبسين حذاءك ، تجتازين النهر .. تجرين وراء الفراشة ، لابد من امساكها حتى لاتذهب عند الغول والذئاب ، هي جميلة جدا لايجوز أن أتركها تذهب .. لايجوز . ! تطير الفراشة فوق ربوة صغيرة ، تجرين وراءها ، تغيب الفراشة وسط الازهار تصير الأرض كلها فراشات .. الاف الفراشات ، الهدوء الكامل يسود الدنيا عدا موسيقى أجنحة النحل ونغمات عشرات الصراصير .. الأزهار حولك بساط رائع من الألوان ، تجرين بين الأزهار ، تقطفين بعضها تكونين باقة جميلة .. هذه سأحملها إلى أمي .. هذه .. وهذه .. وهذه .. تجرين .. تشمين بعضها تتذكرين بوبي :

– بوبي .. بوبي ، أين أنت يا بوبي تنادين بأعلى صوتك .

– بوبي .. ! بوبي .. !

تجرين الى أعلى الربوة ، تطلين على السهل الواسع ، وسط السهل بيوت صغيرة وجميلة .. بيتكم ..! هاهو قريب منك .. ما أجمله مثلما كان تماما ، الا انه يظهر أصغر مما كان .. ربما أنت كبرت قليلا أو لعل الحشائش الخضراء صارت تنافس ارتفاع جدرانه من كل الجهات .

بوبي .. هاهو يتجه نحو البيت ترى أمازال يذكره .. تجرين وراءه

– بوبي ..! انتظر .. بوبي ..! لاتذهب .، هناك الذئاب والغول الذئاب والغول ..؟ ولكن الدنيا كلها خضراء وصفراء وحمراء وجميلة .. لاوجود هنا للذئاب والغول قبل أن نرحل كانت هنا الدنيا رائعة الحركة في كل مكان .. أما اليوم .. هي رائعة أيضا المنازل والحقول والاشجار والازهار وكل شيء هنا ، لكن هذا الصمت يخيف ....

– بوبي .. انتظر لارافقك .. لعلني هنا في بيتنا الجميل سأجد أبي ، حين هجرنا لم يذهب معنا .. لابد أنه ظل هنا .

عندما أصل الى البيت سأفتش عنه .. سيفرح بي كثيرا سيحملني بين يديه الى أعلى مثلما كان يفعل دائما .. سأعاتبه أقول له :

– لماذا لم تأت الينا ، وإذا لم أجده في البيت سأناديه بأعلى صوتي حتى يسمعني لن يصدق أني جئت اليه .

أبي كان طويلا وجميلا . كان يضحك باستمرار .. في فصل الخريف ، كان يصحبني معه الى الحقل ، هذا الحقل بالذات .. كنت هنا معه في الخريف الماضي ، أبي كان يغني بصوت مرتفع وهو يمسك المحراث .. كنت لا أفهم ما يقول .. ولكنه كان يغني .

باستمرار كنت أرافقه الى الحقل .. يعجبني منظر طيور النورس البيضاء كالحليب كانت تتبعه في الخط الاسود الذي يصنعه المحراث في الارض وهي تتسابق بحثا عن الدود ، وكنت أمشي وراءها ، اقترب منها كثيرا لأراها عن قرب .. بوبي كان يجري اليها يحاول أحيانا أن يمسك بها ، كنت أمنعه أجري وراءه وأبعده عنها ، كان صغيرا ، لعله كان يحب أن يلعب مع تلك الطيور الجميلة . قال لي أبي يوما حين طلبت منه أن يمسك لي أحد طيور النورس :

– لا يانورة النورس صديقنا . صديق الفلاحين جميعا ، أترين كم هو جميل ..! هو يحب أن يكون هكذا حرا .. يرحل حيث يريد يلتقط الدود من الحقول ويستنشق رائحة التراب الجديد في الارض المحروثة .

كان أبي يتكلم عندما فأجانا أناس يلبسون لباسا موحدا ويضعون على رؤوسهم قبعات حديدية .. أخذوا أبي معهم كنت عند ذلك أبكي .. أردت أن أتبع أبي لكنهم منعوني .. كانت طيور النورس ماتزال في مكانها تلتقط الدود ، أطلقوا النار عليها ، سقط بعضها .. كانت فوق الأرض المحروثة السوداء ، نقاطا بيضاء تنزف دما وهرب الباقي بعيدا الى حيث لا أدري ...

آه لو ترى يا أبي الحقل الذي حرثته في الخريف الماضي .. صارت سيقان قمحه أطول من قامتي .. انني لا أكاد أظهر منه أما بوبي فلا أراه الا عند ما يقفز بين حين وآخر وراء فراشة أو جرادة .. بوبي منذ كان صغيرا يحب اللعب والجري وراء هذه المخلوقات الصغيرة ، لكن أين ذهب .

– بوبي .. ! بوبي .. !

تجرين نحو البيت ، الصمت يسود الدنيا العالم خال الا منك ومن بوبي الذي اختفى عنك قبل قليل ، تصلين الى جنب البيت في مقابل بابه الكبير حديقة صغيرة متشابكة فيها الحشائش المرتفعة ، تدخلينها تجدين وسطها النعناع أخضر جميلا تقطفين منه غصنا ، تضيفينه الى بقية الازهار.

– سأقول لأمي عند رجوعي : أنظري يا أمي ما أجمله قطفته من النعناع الذي غرسته أنت يا أمي وقبل أن تخضر أوراقه قذفتنا الطيارات بالقنابل فرحلنا عن الدار وتركنا النعناع .

يا أمي هذا هو النعناع الذي غرسته في حديقتنا الجميلة تحت لوزتي الصغيرة ، هناك بجانب بيتنا .. بيتنا الصغير ، بيتنا الجميل ، هل نذهب اليه ..

مازال – صدقيني يا أمي – مثلما كان تماما جميلا .. جميلا جدا ..

– بوبي .. ! أين أنت ؟ بوبي .. ! تعال تنظر هذا النعناع الذي غرسته أمي ، وهذه لوزتي .. مسكين أنت يا بوبي ، أنت لاتعرف لماذا صارت هذه لوزتي ، هذه اللوزة يا بوبي غرسها أبي في اليوم الذي ولدت فيه ، عمرها الان سبع سنوات ولكنها أطول مني كثيرا ، الكل يسمونها لوزة نورة ، سأخذ منها بعض حبات اللوز لأمي ، سأقول لها انها من

بوبي [illegible] حامضة المذاق ، لم تنضج بعد ولكن أمي ستفرح بها كثيرا .. آه يابوبي الى أين ذهبت ؟

– بوبي تعال تنظر لوزتي .. بوبي .. ! لابد أنه دخل الى البيت .. ربما أعجبته البرودة فنام في الظل .

تتجهين نحو البيت ، تدخلين الغرفة الواقعة على يمينك .. غرفة النوم ، بابها مفتوح مضاء بنور الشمس الذي يدخل الى جزء منها من خلال الباب .. تجدين بعض الاثاث مبعثرا مثلما تركتموه في الخريف الماضي .. تنظرين الى الجدران صورة أبيك ماتزال معلقة على الجدار تقتربين منها ، تمدين يدك لنزعها ، لكنها عالية ، تضعين بعض الأثاث فوق بعضه وتنزعين الصورة ، تمسحين غلافها الزجاجي بكم يدك تقربينها من عينيك وتنظرين اليها على نور الشمس تبتسمين .

– بوبي .. ! تعال تنظر صورة أبي ..

– بوبي .. ! آه أنت هنا .. !

الى أين ذهبت ؟ لماذا غبت عني ؟ لاتذهب بعيدا مرة أخرى ، انظر ، أرايت هل تعرف هذا ؟ انه أبي يجب أن تتذكره ، أبي هو الذي جاء بك يوما في «الخرج» عندما كان راجعا من السوق ، لست أدري أين وجدك ..

– آه بوبي .. ! أين أنت .. تعال .. لماذا ذهبت ؟

تمسكين الصورة والازهار على صدرك وتمشين وراء بوبي الى الغرفة الثانية شبيهة بالاولى غير أنها تكاد تكون خالية من الاثاث ، قرب مدخلها تجدين حذاء أخيك الصغير ، كان ما يزال جديدا .. مازلت تذكرين جيدا حين اشتراه له أبوك قبل رحيلك مع أمك الى هناك ، الى وراء النهر ، لم يلبسه يوما واحدا ، قال لك :

– لا تغضبي يا حبيبتي .. في الأسبوع القادم سأشتري لك يا نورة حذاء جميلا ، في هذه المرة لم أجد حذاء جميلا بقياسك .. ولكن رحلت مع أمك الى ماوراء النهر ، وتغيب أبوك ، أنت لاتعرفين الى أين ذهب ولم يشتر لك الحذاء ، أمك دائما تقول لك سيأتي أبوك ويأتي لك معه بالحذاء لكن .. ترى أين أبي ؟ لماذا هوليس هنا ؟

– بابا .. بابا ..

وحدك تسمعين الصدى ترده الجدران ، يردده الفراغ ، تحملين حذاء أخيك وتقصدين باب الخروج .. تمرين بقرب المطبخ بداخله تعثرين على عروسة جميلة تتذكرين أنها عروستك ما تزال في ملابسها الجميلة تنام في علبة حذاء أخيك الصغير تحملينها ، تنظرين اليها تسوين شعرها وفستانها ، ترجعينها الى العلبة ، تضعين معها صورة أبيك والازهار وتحملينها في يد وحذاء أخيك في اليد الاخرى .. تتجهين الى باب الخروج .. قبل الوصول الى الباب تلقين نظرة شاملة على الدار تبدو لك نظيفة للغاية ، في عتبة الباب البراني تلاحظين عدة أعشاش لطيور السنونو ، وتسمعين أصوات الفراخ الصغيرة، منتصف النهار .. الشمس تتوسط السماء .. الحشائش بساط أخضر تزينه الازهار بألف لون .

لماذا لا نرجع الى دارنا انها جميلة .. رائعة .. سأطلب هذا من أمي .. لابد ان نرجع اليها .. هنا لا يوجد ذئاب ولا غول .. هنا لا يوجد شيء مخيف ...

تخرجين من الدار .. ابتسامة على شفتيك .. البهجة على محياك .. تجرين نحو النهر .. تحملين في احدى يديك حذاء أخيك ، وفي اليد الاخرى الصندوق الابيض .. في الصندوق عروستك وصورة أبيك والازهار واللوز .. تجرين نحو النهر تتذكرين أمك والعودة تزداد فرحتك .. بزداد ابتهاجك .. تنادين بوبي .. يسمعك .. يجري اليك .. يتبعك ..

تجرين .. الفراشات تطير أمامك مبتعدة .. الصراصير تملأ الجو بموسيقى اصواتها .. تسمعين طلقات .. تحسين حرارة في جنبك الايمن .. تجرين .. تمسكين الصندوق .. تمسكين الحذاء تزداد الدنيا تلونا في عينيك .. الازهار تغطي كل الارض وتغطي السماء أيضا .. تسقطين على الازهار .. تحيط بك الآف الفراشات .. تصل اليك الآف النغمات العذبة .. يجري بوبي اليك .. يقترب منك .. ينظر في وجهك يشم الصندوق .. يشم الحذاء الصغير .. يتحول بوبي إلى فراشة جميلة .. جميلة .

دمشق – ربيع 1980